# النـــابغون فى أوطانهم

للأستاذ محمود عزت عرفه

كما تتوارى هذه الشمس فى النهار المدجن خلف كسف من السحاب مركوم فلايفتأ يتم عليها ساطع من سناها ، يوشى أطراف السحابة بلآلائه ، ويكاد ينبثق على جنباتها انبثاقا .. كذلك تستكن العبقريات النواشىء فى زوايا بعض النفوس غير منفكة عن إرسال أقباسها الدالة عليها ، فى سدفة هذا الظلام المكتنف صاحبها ، من فقر أو ضعف ، أو اتضاع شأن أو بكورة سن ، أو غير ذلك من سائر هذه المعوقات التى تؤخر تجلى المواهب ، وتملأ السبيل إلى المجد بالشوك والصخور . .

ولهذه النباهة التى تهبط على الخاملين فجأة دلائل وإرهاصات قل من يدركها فى حينها ؛ لكن قل أيضاً من لايعجب لنفسه كيف فاته أن يدركها فى ذلك الحين ! ومن هنا كان المرتقى أمام العصاميين شاقا طويل المدى ، لايكاد يوفى على غايته منهم إلا كل صافى الجوهر فى العبقرية ، قوى المنة على مواجهة مصاعب الحياة ومقارعة أحداثها . .

والعصامى محروم — أول أمره — مما يستند إليه الناس عادة من سالف الحرمة أو سابقة الفضل ؛ وهو ماق بالكيد منكوب بالمعارضة ، موزع جهده بين التقدم تارة ودفع التعويق تارات ، مقسومة قواه بين البناء من جانب وتوقى الانهيار من آخر ...

وأغرى الناس بمنابذته وأشدهم بأساً فى مضارته ، هم أدناهم إليه مكانا ، وألصقهم به وشيجة ونسباً .. من أهل بلده وذوى قرباه ، ومن رصفائه وأنداده الذين يشركونه فى سن أو عمل ، أو نزعة واتجاه .

وكأنما يعجب هؤلاء لفرد من أوساطهم ، أو من أدانيهم ، يسمو إلى منزلة لم يروه من قبل لها أهلا ، ويبلغ من جاه الحياة أو من ثرائها حظا لم يقدروا له أن يبلغه . وما أشد تقتير الناس فى تقديرهم .

فلا غرو — وهذا هو الوضع — أن يكون لأكثر العصاميين ثارات قديمة عند أوطانهم الأولى حيث مرابع طفولتهم ومراتع صباهم .. تلك التى شهدت من بواكير ضرهم وبأسائهم ما لم يشهد سواها ؛ ثم عند مواطنيهم الأقربين فيها ، وهم من ذاقوا على أيديهم أول ماذاقوا من كؤوس الحرمان والأذى ، وتجرعوا أول ماتجرعوا من مرارة التثبيط والجحود . وإنها لثارات وذحول تأبى على أصحابها إلا ترقب العودة إلى هذه الأوطان فى مواكب النصر بعد أن فصلوا عنها فى ركاب الذل والصغار ...

وليس من محض المصادفة أن نرى شكسبير يأوى فى أخريات أيامه إلى قريته ستافورد أون آفون ، مخلفاً وراءه لندن مبسوطة اليدين نحوه بمزيد من ثروتها وجاهها . ولا مراء فى أن صورة عجيبة المنظر كان يلتمع مرآها فى ذهن الشاعر الكبير وهو يقف على باب قريته كهلا فى سن الخمسين .. صورة لشاب فويق العشرين يتسلل لواذاً من أبواب هذه القرية قبل ثلاثين عاما ، وقد جلله عار السرق وحز فى بدنه وثاق السجن ؛ هو وليم شكسبير نفسه الذى أبى أن يمحو عار ذلك الهرب فى سواد الليل البهيم بغير هذا العود المظفر الكريم فى وضح نهار مشرق سنى ..

وكذلك كان شأن تشارلز دكنز الكاتب الروائى الخالد . فقد أنفق فى قرية شاتهام ستة أعوام من طفولته البائسة جابه خلالها الفقر فى أقبح صوره ، وتجرعه فى أمر طعومه . وكان أعظم مايبهره يوم ذاك قصر « جادز هل » القائم على ربوة فى الطريق بين شاتهام وجرافسند ؛ ولقد طالما داعب أبوه مشاعره بامكان استحواذه على هذا القصر إذا هو جد واجتهد ، وأصبح رجلا ذا شهرة ومجد . ولسنا نعجب لهذه الأمنية وإيثالها فى الطموح قدر مانعجب لتشارلز دكنز وهو يعود بعد أربعين حولا فيحققها فى جملتها وفى تفصيلها ؛ بأن يبتلك القصر الجميل

بما فيه ، ويقضي في رحابه ختام أيام حياته وأطيبها . ولقد طوف دكنز في مدائن إنجلترا وقراها ماطوف ، وحظي بطيب المقام ولذاذة التكريم في سويسرا وأمريكا وسواهما من البلدان . . فلم تكن بقعة واحدة في جنبات هذا العالم الفسيح لتستهوي نفسه بمثل ما استهواها ذلك المكان الذي شهد مذلته وضيمه ، فأت عليه نفسه إلا أن يشهده — بعد حين — مجده وعزته ونعماءه .

على أن لورد بيرون لم يحظ بما حظي به صاحباه من هذا الشعور الجميل .. شعور التغلب على مصاعب الحياة ، والانتصار على الزمن وأهله في نفس المكان الذي تسجلت به الهزيمة السابقة [1] ، فقد غلب الموت هذا الشاعر على أعز أمانيه ، وراح يجود بآخر أنفاسه في ميسولونجي من أرض يونان وهو يتمتم في مرارة بكلمته الباقية : لست أخاف الموت ... ولكني أتساءل لماذا لم أذهب إلى إنجلترا قبل مقدمي إلى هذا البلد ! !

* * *

ونحن إذ ننتقل فنتصفح سجل الأدب العربي نرى الأصمعي — راوية البصرة — أحد من دُهُوا بمنت الأقربين ، ومنوا بكيد الأكفاء . فقد نشأ بالبصرة مقلاً رقيق الحال إلا من ذكاء مفرط ونفس وثابة طموح .

وكان مايلقاه من شيخه عطاء بن مصعب — وقد تفتحت على يديه أزاهير عبقريته — أمراً رائعاً عظيماً . بلغه يوماً أن الأصمعي اتخذ حلقة ، واجتمعت إليه فيها جماعة ، فغاظه ذلك . ولما فرغ من حلقته استتبع أصحابه فقال : مروا بنا إلى ظاهر البصرة ! . . قال راوي الحديث [2] : فخرجنا حتى مررنا بشيخ معه أعنز يرعاهن وعليه جبة صوف : فقال له : يا قريب . فقال : لبيك ! قال : مافعل ابنك الأصمعي ؟ فقال : هو عندكم بالبصرة فقال : هذا أبو الأصمعي لئلا يقول هذا إنه من بني هاشم ! !

ويذكر القاضي التنوخي في كتابه ( الفرج بعد الشدة ) قصة الأصمعي مع أحد البقالين على باب بيته بالبصرة ، وما كان يعيره به من الفقر ، وينعيه عليه من انصرافه عن طلب المجدي من شئون العيش ، حتى قال له مرة : يا هذا اقبل وصيتي . أنت شاب فلا تضيع نفسك ، واطلب معاشاً يعود عليك نفعه ، وأعطني جميع ما عندك من الكتب أطرحها في هذا الدن وأصب عليه من الماء للعشرة أربعة ، وأنبذه ، وانظر مايكون منه .

على أن ضائقة الأصمعي تفرجت بعد حين ؛ وأقبلت الدنيا عليه حتى أوطأته بساط الرشيد ، فاستفاضت هنالك شهرته ، وأثرى من مال ومن جاه . وكان من أكبر همه يوم ذاك أن يلم بموطن صباه ، فترفق في استئذان الرشيد حتى أذن له ، وكتب إلى والي البصرة بإكرامه والتحفي به . . قال الأصمعي [1] : فلما كان في اليوم الثالث تأملت أصاغر من جاءني ، فاذا البقال وعليه عمامة وسخة ، فقال : كيف أنت ياعبد الملك ؟ فاستضحكت من حماقته وخطابه لي بما كان يخاطبني به الرشيد . فقلت : بخير ، وقد قبلت وصيتك وجمعت ماعندي من كتب العلم ، وطرحتها في الدن فخرج ماترى ...

* * *

على أن هذه الذكريات « الشقية » التي تربط الإنسان بموطنه الأول ليست مما يطيف بحياة كل نابغة قلقت في البلاد ركابه بل ربما كانوا يتخذون الرحلة عن الوطن الأثير الكريم — باباً إلى التقدم في الحياة ، ووسيلة إلى تحقيق كرائم الغايات فيها : من إحراز مال وجاه ، أو جمع معارف وعلوم ، أو تقويم طبائع مستخذية وشحذ همم كليلة . وقد كان من مواطن العجب عند القوم — ولا يزال — أن يروح أمر من لاينفك حلس بيته ، وأن يحرز معالي الأمور من لم تنهض به همته إلى التغرب في طلابها [2] . فليس كل مغترب إذن طريد وطنه أو ضحية ظلم

(١) من طرائف ماقرأت أن الألمان وفوا الهدنة التي فرضوها على الفرنسيين عام ١٩١٤ م في نفس المكان من غابة كومبيان ، بل وفي مركبة القطار ذاتها ، التي وفوا بها شروط الهدنة المفروضة عليهم في عام ١٩١٨ ( ! ! )

(٢) انظر ترجمة عطاء بن مصعب في معجم الأدباء لياقوت

(١) الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي ( الفصل السابع : فيمن استنقذ من كرب وضيق خناق ، بإحدى حالتي عمد أو اتفاق .

(٢) قال ابن خلكان في ترجمة شرف الدين أحمد ابن كمال الدين الأربلي : كان اشتغال شرف الدين المذكور على أبيه بالموصل ، ولم يتغرب لأجل الاشتغال ، وكان الفقهاء يقولون : نعجب منه كيف اشتغل في وطنه وبين أهله ، وفي عزه واشتغاله بالدنيا ، وخرج منه ماخرج ؟ انتهى .

مواطنيه ، وإنما قد يفارق وطنه وأهله من لا يزال يحن إلى سالف سعادته هنالك حنين النيب إلى أعطانها ، وقد يبلغ إلحاح هذه الذكريات السعيدة على النفس حداً تفوق به شقى الذكريات وما تدفع إليه من رغبة التشفى وتذوق حلاوة الانتصار ، مما ضربنا له الأمثال آنفا .

وكان طاهر بن الحسين الخزاعى ، قائد الخليفة المأمون والملقب بذى اليمينين ، أحد من أضناهم هذا الشعور الأخير .. شعور الحنين إلى الوطن وتعلق النفس بذكريات سعيدة فيه — حتى لنغص عليه من سروره الحاضر وسعادته المستأنفة .

قال له بعض جلسائه يوما وقد بلغ من الجاه فى دولة المأمون ما بلغ : ليهنك ما أدركته من هذه المنزلة التى لم يدركها أحد من نظرائك بخراسان . فأجاب طاهر : ليس يهنينى ذلك ، لأنى لا أرى عجائز « بوشنج » يتطلعن إلىّ من أعالى سطوحهن ..

وإنما يقول ذلك لأنه ولد ببوشنج وبها نشأ ، وكان جده عليها حاكما . وممن اجتمع لهم شقى الذكريات وسعيدها ، فحدا بهم إلى أوطانهم حاديان ، وتمهد أمامهم نحوها سبيلان مهيعان — نبينا محمد عليه أفضل الصلوات .. ففى مكة نشأ وتربى ملحوظا بعناية من ربه ، كريماً على نفسه وعلى قومه ، يظله من قبيلته أرفع لواء ويكنفه فيها أشرف بيت ؛ وفى مكة أيضاً لقى الإعراض والأذى من قريش صنوفا . فيها لقّب الصادق الأمين حقا وإنصافا ، ثم وسم بالشاعر والكذاب بغياً وإسرافا .

فليس عجيباً بعد هذا أن يكون حنينه إلى مكة قويا بليغاً يؤرثه شوق غلاب إلى عهود هنالك كريمة ومشاهد محببة أثيرة ، وأن ينضاف إلى هذا الحنين شعور آخر قوى بالرغبة فى مجابهة هؤلاء القوم الذين أخرجوه من داره مجابهةً يزلزل بها عقائدهم الملتوية ، ويزيل بها تلك الغشاوة التى رانت على أعينهم ، فيعرفوا قدر دينهم فى الأديان ، ومنزلة رسولهم بين رسل الله المكرمين : «قيل ادخل الجنة ، قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين» .

ومن علائم الشعور الأول ما كان من شأنه صلى الله عليه وسلم يوم قدم عليه أصيل الخزاعى من مكة فقال له : يا أصيل ، كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها وقد أجحش شُمّامها وأمْشر سلمُ بها وأعذق إذخرها . فجاش صدره الطاهر بأرق الحنين وأحر الاشتياق ، ثم غمغم يقول : دع القلوب تقر !(١)

* * *

ألا لله ما أحلى العز والكرامة فى أرض الوطن ! فلمثلهما يتجرع العقلاء كؤوس الذل والمهانة مغتربين . يقتحمون مشاق التطواف طلباً لدعة المقام ، ويقتعدون ظهور المعاطب التماساً لمواطئ النجاة ومهابط الأمن والسلامة :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ... ولم تدر أنى للمقام أطوّفُ

رب خفض تحت السرى ، وغناء ... من عناء ، ونضرة من شحوب !

وليس يحس قدر هذه النعمة إلا كبار النفوس ممن يغالبون الأيام فيقتلون أو يُقتلون ، ويشربون كؤوس الحياة من أرْى وشرى حتى الثمالة ... ولعل فى رأس القائمة من هؤلاء كافى الكفاة الصاحب بن عباد — وزير آل بويه — قال القاضى الجرجانى فى بعض حديث له عنه : إن الصاحب يقسم لى من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد . وقد استغنيته يوماً من فرط تحفيه بى وتواضعه لى فقال :

أكرمْ أخاك بأرض مولده ... وأمدّه من فعلك الحسن

فالعز مطلوب وملتمسٌ ... وأعزّه ما نيلَ فى الوطن

ثم قال : لقد فرغتَ من هذا المعنى فى العينية ، فقلت : لعل مولانا يريد قولى :

وشيدتُ مجدى بين قومى فلم أقلْ ... ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

فقال : ما أردت غيره ، والأصل فيه قوله تعالى : يا ليت قومى يعلمون ، بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين .

للكلام بقية

محمود عزت عرفه

المدرس بقوص الأميرية

---

(١) وفى أمالى القالى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع بلالا ينشد هذا البيت :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى إذخر وجليل

فقال : حنت يا ابن السوداء !